الدليل القاطع

للكاتب الأمريكي: (جراهام جرين)

قال تعالى: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ صدق الله العظيم

تابع الصوت المتعب... المتهدج النبرات انبعاثه... وبدا كما لو كان يقاوم مصاعب شتى وعقباتٍ كأداء قبل أن يصافح أسماع الحضور.

ـ الرجل مريض لاريب! قال الكولونيل «كراشو» في شيء من الشفقة... والتوتر.

وعادت به الذاكرة إلى الوراء... يوم كان شابًّا يصارع جبال «الهيمالايا» تذكّر كيف كان يضطر إلى اجتذاب الأكسجين بعنف مرات عدة مع كل خطوة يخطوها صعوداً... وألقى على المنصة التي يقف عليها الخطيب نظرةً عاجلة كانت ترتفع عن الأرض خمسة أقدام... غايةً في الأناقة كانت قاعدة الموسيقى التي جمعت ذلك الحشد بمركز «المنتجع» وشرع يقارن بين صعوبة تسلق الهيمالايا... وما يتطلبه ذلك من احتياج للأكسجين... وبين ذلك الخطيب التابع هناك... أعلى المنصة... بدا جلياً أنه كان يجتذب الهواء اجتذاباً... وما أشدّ الشبه! قال في نفسه ـ ما كان ينبغي لذلك المتحدث أن يأتي في يوم بارد رطب ـ تابع مناجاة نفسه قبل أن يسكب شيئاً من الماء فيدفع به إلى المحاضر.

كانت القاعة سيئة التدفئة فيما تسللت أصابع ذلك الضباب الشتوي الأصفر متحسسةً صدوع النوافذ... كان المحاضر قد فقد كل صلة له بالحضور، تبدى ذلك واضحاً وضوح شمس الظهيرة تتوسط كبد السماء، وألقى الكولونيل نظرة عجلى... أدرك معها أن النظارة كانوا يحملقون في عشوائية غريبة عبر القاعة... أما العجائز منهم فقد كشفن عن قسوة لا تجارى في الإفصاح عما كان

يعتمل في صدورهن من ضيق وملل! على أن جمعاً من الضباط المتقاعدين قد تصنّعوا الاهتمام بما كان يقال.

كان الكولونيل «كراشو» ـ كرئيس للجمعية الروحانية المحلية ـ قد تلقى قبيل أسبوع خطاباً من المحاضر... كُتب بخط أرعشه المرض أو الهرم... حول ضرورة عقد اجتماع عاجل للجمعية ـ وكان من ضمن ما أدرج في سياق حيثيات ومسوغات ذلك هو «شرح وصفي لتجربة خارقة للعادة يتحتم عرضها وهي بعد حيّة لما تزل» رغم أن الراسل لم يكن ليحدد طبيعة تلك التجربة على الإطلاق وتركها في غياهب الغموض تمور وتضطرم.

ولم يكن الكولونيل «كراشو» ليسارع في الرّد لو لم يكن الخطاب قد ذُيّل بتوقيع من «فيليب ويفر» الرائد المتقاعد في الجيش الهندي... وقبول طلبه كان أقل ما يمكن عمله حيال زميل في المهنة... وعاد إلى مقارعة الفرضيات ثانيةً... أرعش الخط مرض أو هرم دون ديب.

وتأكداً أخيراً مصداقية الافتراض الأول حينما جمعهما لقاء المنصة تلك الليلة.

لم يكن الرائد «ويفر» قد تخطى الستين لكنه بدا طويلاً نحيفاً... شديد السمرة... برز أنفه في قبح فيما امتلأت عيناه بسيماء السخرية والازدراء... ـ إنه من تلك الفئة النادرة التي لا يستعصي عليها شيء! فكر «كراشو».

على أن أكثر ما أثار نقمة «كراشو» واستياءه هو ذلك العطر الذي كان ينثال من المنديل المتدلي من جيبه... كان عبيره قوياً متأججاً كحديقة زنابق كاملة... ورفعت السيدات أنوفهن فيما استأذن اللواء «ليد بيتر» في إشعال لفافة تبغ!.

كان يبدو جلياً أن «ويفر» قد استوعب ذلك إذ إنه ابتسم في شيء من الشفقة والاستفزاز قبل أن يقول في بطء شديد ـ أتمانع في عدم التدخين؟ أعاني من اضطرابات حلقية هذه الأيام!... وتمتم «كراشو» ببضع كلمات مفادها أن الطقس مسؤول عن كثير من التهابات الحلق السائدة وبأن «الأنفلونزا» قد أضرت بالكثيرين وتسللت إليه تلك النظرات الساخرة... المفعمة هجاءً... تأملته مليًّا قبل

أن يقول «ويفر» في صوت لم يتجاوز منتصف القاعة «فيما يختص بحالتي فأنا مصاب بالسرطان».

وفي خضم الصمت الغاضب الرهيب الذي ساد القاعة تباعاً خلفاً لما سلف من حميمية جوفاء استهل «ويفر» كلمته دون أن ينتظر تقديم «كراشو» له... بدا مستعجلاً بادئ ذي بدء... وأدرك بأن الدقائق التي تلت مُلِئتْ عوائق ومصاعب حاصرت خطبته من كل صوب صوته كان حاد النبرات يستحيل أحياناً صراخاً طويلاً حاداً تمجه أذن السامع. بدأ بإزجاء عبارات التحايا والثناء لأعضاء الجمعية على أنه أتبع ذلك بحديث بلغت معه المبالغة حدّ إيغار صدور الحاضرين عليه، وإذكاء نيران الغضب في ذواتهم ـ كان سعيداً ـ قال لهم ـ بمنحهم فرصة يستمعون فيها إليه لأن ما سيقوله قد يغير الرأي السائد عن القيم النسبية للروح والمادة ـ شيء غريب ـ يا له من غموض! فكر «كراشو» وشرع صوت «ويفر» ذو النبرات الحادة في نشر دائرةٍ معلوماتية.

ـ إن الروح لهي أقوى بكثير مما تعتقدون... ـ قال ـ وإن النشاط الفيزيولوجي للقلب والمخ والأعصاب هو عامل مساعد لها ـ كانت الروح كل شيء ـ وقال ثانية وصوته الحاد يجرح كبد السكون كصرير خفاش ملتصق بالسقف:

ـ الروح أقوى مما تتصورون كثيراً.

ووضع يده على حلقه قبل أن يحدق في زجاج النافذة بعينين نصف مغمضتين... متأملاً ذلك الضباب الغامض المتدافع الكثيف... رافعاً بصره إلى المجسم الكهربائي المعلق للكرة الأرضية... وهو يئز لشدة الحرارة وضعف الطاقة في تلك الظهيرة المعتمة:

ـ إنها خالدة...! قال لهم في وقار جاد... على أنهم شرعوا في التململ في مقاعدهم في ضجر ونفاد صبر. ولم يلبث التعب أن غشى صوته فبدا خافتاً واهن النبرات وربما كان مرد ذلك شعوره بانقطاع كل آصرة صلة بينه وجمهور النظارة. وامتشقت مسنّةٌ في آخر القاعة إبر الحياكة وشرعت في سرد كرة الصوف ثم انهمكت في حياكة قطعة ما وكلما انسكب النور على «صنارتيها» ارتد

أشباحاً راعشة متراقصةً على جدران القاعة... تماماً كروح فولاذية مشعّة!... واختفى كل أثر للسخرية من ملامح «ويفر» لوهلة فبدى بؤبؤا عينيه كما لو أنهما قد استحالا قطعاً زجاجية جوفاء!

ـ إن هذا لهو غاية في الأهمية. صاح المحاضر فيهم «سأروي لكم هذه القصة» واجتذب وعده الأكيد ذلك انتباههم برهة إلا أن استقرار إبر الحكاية في يد المسنة دون حراك لم يهدئ من اضطراب أعصابه فما كان منه إلا أن سخر منهم جمعياً:

ـ «آيات وعجائب»! ردد في غموض.

ساعتها انقطع خيط حديثه كليّةً. ومرر يده على حلقه مرات عدة ثم تلا شيئاً من أعمال شكسبير وبعض رجال الدين. وشرع صوته في الاضمحلال فاقدا في خضم ذلك كل سياق منطقي... ورغم ذلك فقد بهُر «كراشو» جرّاء مقدرته على الجمع بين المتناقضات ببراعة وذكاء. كان حديث «ويفر» كتمتمات شيخ يحول مجرى الكلام بين تارة وأخرى دون أن يتخذ نسقاً محدداً مكتفياً بالاتكاء على قاعدةٍ معينة من اللاوعي: ـ عندما كنت في «سيملا» قال «ويفر» حانياً حاجبيه كمن يتقي ارتداد وهج الشمس تعكسها ساحات الثكنات العسكرية في لمع يكاد سنا برقه يخطف الابصار...! على أنه يبدو أن الصقيع والضباب وتلك القاعة المعتمة الكئيبة قد اغتال مسار ذكرياته.

وشرع يؤكد للحضور ثانية أن الروح خالدة لا تزول بزوال الجسد وأنها تستقر في البرزخ بأمر الله.

ـ حالته تدعو للشفقة! فكر «كراشو» الذي بدا له الأمر كما لو كانت الحياة ابنا وحيداً لـ«ويفر» جاهد وهو يراه يحتضر أمامه أن يبقي على خيط اتصال معه لا تبليه يد الزمان.

ووصلت إلى «كراشو» ملاحظة من الدكتور «براون» وكان رجلاً قصيراً تبدو عليه سيماء النباهة ويجلس في الصف الثالث. فأما الملاحظة الخطية فتقول:

ـ أليس بإمكانك إيقافه؟ جليّ أن الرجل مريض جداً... ثم... أي فائدة تجنى من حديثه على أي حال؟

والتفت «كراشو» يمنة ويسرة... فأحسّ بتبخّر ما استشعر من شفقة على «ويفر» حينما بصر بعينيه تجوبان أرجاء المكان وقد ملئتا سخرية وانتقاداً لمن حوله. وزاد في غضبه ذاك المنديل الناضح بعطر مركز غمس فيه طويلاً. بدا له «ويفر» أجنبياً غريباً! ينبغي مراجعة سجله ضمن قوائم الجيش القديمة! ـ قال في نفسه!

ـ الدليل القاطع. ردد «ويفر» لاقطاً أنفاساً متعبةً لاهثة. ووضع «كراشو» ساعته على المنضدة لكن «ويفر» لم يأبه بذلك... كان يسند جسده متكئاً بيده على حافة المنضدة.

ـ سأقدم لكم ـ قال بصعوبة متنامية ـ الدليل القا... وانتهى صوته إلى سكون تام... تماماً كتوقف الإبرة في نهاية الأسطوانة، على أن الهدوء لم يدم طويلاً؛ إذ انبعث فجأة من ذلك الوجه الذي تجمدت ملامحه حتى خلا من كل تعبير، صوت هو إلى المواء الحاد أقرب فاستقطب اهتمام الحاضرين طرًا، وأتبعه بطائفة من الأصوات المبهمة الشاذة، همسات شفهية وجوقة من الألفاظ الغريبة المتنافرة، فيما كانت أصابعه تمارس الطرق على المنضدة... ذلك المزيج الصوتي الرهيب أعاد إلى الذاكرة جلسات استحضار الأرواح المحرّمة وقرع الطبول في كبد الليل... واحليلاك الدجى وتلك القاعات الداكنة المفرغة الهواء.

وجلس «ويفر» في كرسيه ثم ألقى برأسه إلى الخلف فجأة دون حراك وشرعت عجوز في الصياح بعصبية فيما شق الدكتور «براون» طريقة إليه بصعوبة وانحنى عليه مستجلياً كنه ما ألمّ به.

ورأى «كراشو» يد الطبيب المرتعشة وهي تمتد إلى جيب «ويفر» لتخرج منديله فتقذف به بعيداً... قبل أن تتسلل إلى أنفه رائحة أُخرى... غير سارّة وهمس الطبيب:

ـ اصرف الجميع إنه ميت.

كان يتحدث في حزن وكآبة يندر أن يستشعرها طبيب اعتادت عيناه مصافحة شتى أنواع الموت وقبل أن ينفّذَ «كراشو» ما طلب منه ألقى نظرة على الجسد الميت فهاله مرآه!

عبر سنين طويلة... عايش من الموت أشكالاً شتى... رأى أناساً ماتوا انتحاراً وآخرين قضوا نحبهم في ساحة الوغى... إلا أنه لم ير شيئاً كهذا. كان كجسد انتشل من البحر بعد وفاته بأمد بعيد... أما لحم الوجه فكان على وشك أن يهوي مزقاً كما تهوي الثمرة جاوزت النضج أدهراً. ولذا فإنه لم يستغرب كثيراً حينما همس الطبيب في ذهول:

ـ «يبدو أن الرجل قد مات منذ أسبوع»!.

أما ما ظل يحتل المساحة الأكبر من تفكير «كراشو» فهو إصرار «ويفر» على ترديد عبارة «الدليل القاطع»... لقد كان يحاول إثبات حقيقة مؤادها أن الروح تخلد بعد فناء الجسد فهل تأتى له ذلك؟!!